

العبور الهوياتي والسيطرة على المكان في رواية "زنج" لنيل لارسن

Identity transition and control of place in Nella Larsen's novel
"passing"

د. ويزة*

جامعة البليدة 2 لونيبي علي الجزائر

ouizagharbi@yahoo.fr

تاريخ الارسال 2026-05-04 تاريخ القبول 2026-09-11 تاريخ النشر 2026-09-20

ملخص:

كثيرا ما تأسرن الرغبة في العودة إلى الأماكن التي ولدنا ونشأنا فيها نظرا لقيمتها المعنوية في وجداننا، فلا يقتصر المكان على كونه مجالا جغرافيا نسجل انتسابنا الإقليمي إليه، بل يصبح مجالا حيويا تربطنا به علاقات تفاعلية تساهم في تحديد هوية الفرد الذي يؤسس فيه علاقات مع الآخر تكون أحيانا قائمة على الإثتلاف وأحيانا يسودها الاختلاف، فتحاول كل فئة إقصاء الآخر حتى لا يخرق فضاءها، وبالتالي بناء هوية نقية وعرق أصلي وهو مطمح الكثير من القوميات الراضية للمختلف رغم استحالة تحقيقه، حيث ينشأ داخل الفضاء الجغرافي مجموعات مختلفة ثقافيا، تسعى إلى بناء فضاءات للانتماء تقضي فيها الآخر، فلم يعد المكان حيزا جغرافيا ثابتا بل مجالا ثقافيا واجتماعيا تتفاعل بداخله الممارسات الإنسانية في إطار حدود صارمة تكشف عن تسلط فئة معينة باسم اللون والعرق، فتظهر علاقات عنيفة حد القتل لمقاومة هذا التحول العرقي الذي كشف رغبة زنوج أمريكا في العبور إلى العرق الأبيض، وقد عرفت أمريكا خلال نفضة هارلم في بداية الثلاثينيات هذه الظاهرة التي أطلق عليها مصطلح "العبور العرقي"، وتأتي رواية "زنج" للروائية الإفريقية الأصل والأمريكية الجنسية نيل لارسن، لتشرح هذه الظاهرة التي سادت في المجتمع الأمريكي والتي أدت إلى إعادة تصنيف الطبقات الاجتماعية، وظهور هويات هجينة فضلت التخلي عن هويتها من أجل مراكز اجتماعية ومكاسب سياسية أفضل.

الكلمات المفتاحية: العبور، العبور العرقي، المكان، الفضاء الهوياتي، العرق.

Abstract:

We are often captivated by the desire to return to the places where we were born and raised, given their symbolic value in our hearts. Place is not merely a geographical space to which we register our regional affiliation, but becomes a vital space with which we are bound by interactive relationships that contribute to defining the identity of the individual who establishes relationships with others within it. These relationships are sometimes based on

*

harmony and sometimes dominated by difference, with each group attempting to exclude the other so that it does not penetrate its space, thus building a pure identity and an original race. This is the aspiration of many nationalities that reject the different, despite the impossibility of achieving it. Within the geographical space, culturally different groups emerge, striving to build spaces of belonging in which they exclude the other. Place is no longer a fixed geographical space, but a cultural and social space within which human practices interact within strict boundaries that reveal the dominance of a certain group in the name of color and race. Violent relationships, even to the point of killing, emerge to resist this racial transformation, which revealed the desire of Black Americans to cross over to the white race. America witnessed this phenomenon during the Harlem Renaissance in the early 1930s.

Keywords: Crossing, ethnic crossing, place, identity space, race.

مقدمة

عرف المكان في إطار السرديات الثقافية توسعا مهما على مستوى المفهوم والمكونات، أدى إلى تجاوز مفهومه الجغرافي المغلق إلى الفضاء الثقافي المفتوح، ففي إطار السرديات البنيوية أخذ المكان باعتباره عنصرا من عناصر البنية

السردية مكانة هامة لقد التفت النقد البنيوي إلى شعرية المكان حيث تجاوز غاستون باشلار التعامل معه باعتباره ظاهرة هندسية جامدة، ففي كتابه "جمالية المكان" يمنح باشلار المكان قيمة إنسانية تجعله حيزا أليفا يوفر لسكانه من الحميمية والألفة، ما يجعله ينتقل من بعده الفيزيقي المادي إلى حيز أكثر إنسانية، وقد تم إثراء مفهوم المكانية الذي يركز الوجود داخل حدود تمنح الحماية للمنتسبين إليها، فالمكان ليس مجرد خلفية مادية للأحداث بل هو

حامل لمعانٍ ودلالات عميقة تعكس الهوية الثقافية للأفراد والجماعات، ويعطي لوجودنا شعورا مكثفا بالأمان والاطمئنان، فالعلاقة بين الأماكن وسكانها تتجاوز حدود الجدران في بعدها المادي وتبعث فيها روحا تجعل منه تعبيراً عن تجربة نفسية عميقة تحزن دلالات ورموزا عميقة، فالمكان في الأعمال الأدبية فضاء حي مليء بالتجارب

الإنسانية يتفاعل مع الذات، مما جعل التعامل معه في إطار السرديات الثقافية يتحول من مجرد موضوعات سردية تركز على البعد الجمالي، إلى فضاءات ثقافية مشحونة بدلالات سياسية واجتماعية وتاريخية، إذ أدى هذا التحول الذي طرأ بعد النصف الثاني من القرن العشرين إلى تغيير أدوات قراءة هذه الأماكن في النصوص السردية،

والتعامل معها باعتبارها فضاءات ثقافية متحركة تتداخل فيها أنساق متعددة تعكس التنوع الثقافي والتعدد

العرقي. ويوسع هذا المنظور من دائرة القراءة ليشمل أبعادا مختلفة استبعدتها المقاربات الجمالية، أساسها الوعي

بالتعددية والاختلاف، إنها قراءة مغايرة للمكان باعتباره فضاء ثقافيا لفهم التوترات القائمة بدورها على وجود ثنائيات متعارضة، تساهم في صناعة حدود رمزية فاصلة بين الذات والآخر داخل الفضاءات المكانية، بالتركيز على

دور المكان في تشكيل الهويات وصناعة الرؤى الثقافية عبر أنساق التمثيل الثقافي التي تتحرك داخله، حيث

تُستخدم هذه الحدود لتأطير الانتماءات وهويات الجماعات ومنع الآخر المختلف من

¹ اختراقها، وهي الموضوع التي طرحتها الروائية الأمريكية الجنسية والإفريقية الأصل (نيلا لارسن) في روايتها "passing" التي تعني المرور، وقد استبدل المترجم العربي عنوانها باللغة الأصلية، وتعد هذه الرواية مرتكزا خصبا لتقديم هذه المقاربة التي تفكك بنائها السردية وتمثلاتها للفضاء الهوياتي، إذ تشكل الرواية خطابا ثقافيا يسعى إلى تشكيل عالم ثقافي واسع، مما يساهم في إنتاج فضاءات ثقافية حيوية تعكس الصراع المجتمعي والتعدد الهوياتي. فكيف تقرأ الأماكن في النصوص السردية في ظل تجاوز الاهتمام بالجمالي إلى فضاءات ثقافية بديلة، مشحونة برغبة في تشييد المكان بمضامين فكرية ثقافية مختلفة؟ وكيف تشكل الفضاءات الثقافية الموازية للأماكن الجغرافية انطلاقا من التفاعل بين الأحداث القائمة على التخلي ونكران الهوية؟

عبور المكان وتشبيد الفضاء الهوياتي الجديد

لقد تغيرت النظرة إلى النصوص الروائية في إطار النقد الثقافي، وأصبحت بنية ثقافية تضم أنساقا اجتماعية وتاريخية، مما جعل دراستها تكشف عن فضاء ثقافي قائم على الصراع بين الهويات، يهتم بالبعد التمثيلي والثقافي مع التركيز على كيفية بناء الأمكنة ومنع الآخر المختلف من اختراقها، وبالتالي سيطرة أيديولوجيات مهيمنة، مما يدعو إلى قراءة موسعة للنصوص، وفهم أعمق للصراعات والتوترات الموجودة في المجتمع.

إن النقد الثقافي بأدواته وقراءته الترصدية وبحته عن العيوب والخلل النسقي، سيشمل أنساقاً اعتقادية كامنة لها تأثيرات سلبية ومخرجات قبيحة هذه الأنساق الثقافية المؤثرة هي التي عرفها الغدامي بقوله: "أنساق تاريخية أزلية

¹ -برزت أعمال نيلا لارسن خلال نهضة هارلم، وهي حركة ثقافية ازدهرت في نيويورك بقيادة كُتّاب أمريكيين من أصل أفريقي، وقد اشتهرت هذه الفترة بازدهار الأدب والموسيقى الأمريكية الأفريقية، وتعتبر أعمالها من أهم ما كتب في هذه المرحلة في الأدب الأمريكي، ولا تزال تُحدث صدى بمواقفها حول الهوية واختلاط الأعراق، ولا يزال استكشاف لارسن لصراعات الهوية يُلهم الأدب الحديث بمواضيع أثارها حول التمييز الطبقي والتعبير عن الذات والعبور، وقد كتبت روايتها لتشرح هويات متضاربة لتجارب الأشخاص الذين مارسوا العبور العرقي، الذي ارتبط بفكرة نقاء الفضاءات التي تحدد الانتماءات الثقافية والاجتماعية بفرض حدود مادية فاصلة بهدف تنظيم الهوية الثقافية والفصل بين "الذات" و"الآخر" المختلف.

وراسخة ولها الغلبة دائماً" فالرواية ليست خطاباً تخيلياً فقط، بل هي خطاب ثقافي أيضاً "وظيفتها الأصلية في بناء "الفضاءات الثقافية"² ويعد الفضاء مجموعة من الظواهر والعلاقات التي تتفاعل فيما بينها لتكوّن بنية النص الفني، فالعلاقة بين المكان والشخصيات تتجاوز حدود المكان في بعده المادي، وتبعث فيها روحاً وحركة تجعل منه تعبيراً عن تجربة نفسية عميقة يحمل دلالات ورموزاً، فهو "ليس أشكال هندسية وحجوم... هو نظام من الأشياء المجردة"³ فالمكان في الأعمال الأدبية ليس حيزاً حيادياً، بل هو فضاء حي مليئ بالتجارب الإنسانية يتفاعل مع الذات ويساهم في بناء الهوية وتعزيز الشعور بها عند شخصيات الرواية، ويصبح المكان مجالاً للتبادل الثقافي بين هذه الهويات، وقد يؤدي هذا التفاعل إلى نشوب صراعات بين الأفراد، وهنا تبرز الحدود المرسومة التي تزيد من حدة هذا الصراع الاجتماعي والثقافي بين المتعارضين الذين يجمعهم المكان نفسه، فالمكان في رواية زنج يعكس تجربة صديقتين من نفس العرق واللون ويكشف التعارض الثقافي والاجتماعي بينهما، حيث يصبح المكان مساوياً للحياة والهوية ويعني التخلي عنه فقدان الهوية وإدراك مختلف للعالم الذي تم تسييجته، وهدم فضاء المهجنة الذي يفسر كيف تُبنى الحدود الثقافية والاجتماعية التي تسيج الفضاءات الجغرافية، وكيف تُستخدم هذه الحدود في تنظيم الهويات، والتحكم في الفضاءات الثقافية والاجتماعية والسياسية المتشابكة.

يُعتبر المكان عنصراً أساسياً في بناء العالم السردى للرواية التي تعتمد بصورة كبيرة على تحديدات مكانية في تشييد هذا العالم الروائي فكل حدث يأخذ وجوده في مكان وزمان محددين، وتعتبر السرديات البنيوية المكان المجال الحيوي الذي تتفاعل فيه مع الزمن والأحداث، فهو يعكس الحالة النفسية والاجتماعية للشخصيات، ويجسد صوراً عميقة عن الإنسان وعلاقته بالعالم المحيط به، وينكشف عن دلالات رمزية وثقافية تتشابك من أجل بناء الدلالة، وهذا يفرض على الدارسين التعامل مع المكان كبنية مشحونة بدلالات اجتماعية وثقافية فهو عنصر فعال في بناء الشخصية التي تسعى جاهدة إلى إعادة بناء نفسها، بعد التخلي عن هويتها الأصلية ضمن فضاء سردي متعارض ومضطرب، يتجلى هذا الاضطراب في شعور الشخصيات بالاعتراب المكاني والثقافي في الأماكن المعادية، فالعلاقة بين المكان والشخصية علاقة جدلية، حيث يؤثر في تشكيل سمات الشخصية، وفي المقابل تتفاعل الشخصية مع المكان فتغير من إدراكها له ويصبح جزءاً لا يتجزأ من تكوينها، فيصبح عنصراً سردياً له وظيفته في بناء المعنى ويصبح جزءاً من الخطاب السردى الذي يساهم في تشكيل الرؤية الكلية للعمل في الرواية، وهو يعكس كيف يقوم الإنسان أو الجماعات بفرض حدود مادية أو رمزية على المكان بهدف تنظيم الهوية والفصل بين "الذات" و"الآخر"

2. عبد الله محمد الغدامي، المركز الثقافي العربي، المرجع نفسه، ط1، 2008، ص 792

3. بسام علي، جماليات المكان في رواية باب الساحة، لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات

273، ص 2007، ع 2، 15، لانسانية، مع

المختلف، من خلال تمثيلات ثقافية تنطلق من مرجعيات عرقية أو لغوية أو دينية، بهدف منع الآخر المختلف أو إقصائه، إذ ينخرط أفراد المجتمع الذي يعتبر نفسه الأفضل والأرقى في تحييد كل مختلف ورفض انتماء أي دخيل، وتعتبر عملية الطرد وسيلتهم الأساسية لحماية أصالة عرقهم وصفاء انتمائهم، وبالتالي هدم فضاء المهجنة الذي تتفاعل فيه الهويات والثقافات المختلفة رغبة في بناء هويات أكثر تجانساً وانسجاماً.

إن اصطناع الحدود بدافع عرقي وديني وتقويض فضاءات المهجنة الثقافية وتحديد الفضاء من وجهة نظر الأنا في مواجهة الآخر، قد تجسد سردياً في رواية زنج التي كتبها الروائية الأمريكية من أصول إفريقية نيلا لارسن، تناولت فيها تعقيدات الهوية التي عانت منها هي شخصياً، فقد عايشته منذ طفولتها التمييز العنصري كونها الوحيدة ذات البشرة الداكنة في عائلتها البيضاء عانت فيهما من حيرة الهوية داخل عائلتها المزدوجة اللون والعرق، لقد بنت نيلا لارسن روايتها على فضائين أساسيين مختلفين متصارعين منذ تاريخ طويل هما:

- فضاء مدينة هارلم هو حي يقع في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية قد لعبت هذه المدينة دوراً رئيسياً في احتضان الزنوج الأمريكيين باعتبارها المركز الرئيسي للثقافة الأمريكية الأفريقية، وأصبحت حياً يغلب عليه السكان السود في أوائل القرن العشرين بسبب الهجرة الكبرى... مع تاريخ مرتبط ارتباطاً وثيقاً بهويتها كعاصمة السود في أمريكا،⁴ وقد كانت فضاء للصراع بين الأنا الأبيض والآخر الأسود، حتى أصبحت تحمل رمزية النضال من أجل المساواة في الحقوق المدنية بين الزنوج والبيض، و شهدت فصلاً صارماً بين الأعراق على أساس اللون، حتى طبقة الملونين التي ظهرت من تزواج البيض مع السود يعاملون معاملة السود، وخوفاً من هذا الاختلاط العرقي وضع القانون الأمريكي حدوداً صارمة لطرد من له قطرة دم واحدة من أصل زنجي، لذلك منع الأفارقة وحتى أصحاب البشرة الفاتحة من دخول بيوت البيض، ويعتبر ذلك شكلاً من أشكال

الفصل العنصري، فقد رفض زوج كليز دخول أي زنجي بيته، ففي حفلة الشاي التي أقامتها كليز في بيتها لم تدع زنجياً واحداً إليها، لأن وقف زوجها من السود يجعلهم خارج المكان، إذ رد على سؤال أحد المدعوين "أنت تنفر من الزنوج سيد بيلو؟... فرد: أنا لا أنفر منهم أنا أكرههم... إنهم يثيرون اشمئزازي. الشياطين السود القذرة"⁵

كما تعرضت ايرن ردفيلد إلى الطرد من مقهى فندق درايتون في لقاءها المفاجئ مع صديقها التي لم ترها منذ زمن طويل، والتي دعتها إلى شرب الشاي في شرفة الفندق، وهو مكان ممنوع على الزنوج فقد "شعرت أيرن بمشاعر الغضب والازدراء والخوف تتسلل إليها، ليس لكونها خجلت من كونها زنجية... بل إن ما أثار انزعاجها فو فكرة طردها من أي مكان... التي يمكن أن يلجأ فندق الدرايتون"⁶ الذي يصبح مكاناً معادياً يعكس حالة العزلة والرفض إذ كانت القوانين تسمح بطرد السود، وإجبارهم على الجلوس في أماكن أقل قيمة

⁴. https://www.google.com/search?q=history+of+black+harlem&sca_esv.

⁵. نيلا لارسن، زنج، تر: علي المجنوبي، دار أثر، دت، دط، ص 57.

⁶. نيلا لارسن، زنج، ص 25.

بعيدا عن البيض، ويعكس هذا وضعاً اجتماعياً كارثياً تهدر فيه كرامة الإنسان وحقوقه لأنه مختلف في اللون فقط. لقد أصبح للمكان دور كبير في تشكيل الذات وبناء الهوية في إطار صدام فكري وإيديولوجيا متحيزة قادت إلى الطرد والتهميش، وكشفت عن إنية متضخمة زادتها السلطة بكل أشكالها توحشا، مما يرسم للمكان صورة مشوهة لواقع مأزوم يمجّد التدمير ويفرض فضاءات اللقاء والتفاعل والهجنة.

أما باقي فضاء مدينة نيويورك الثاني فقد شهد منع الزوج من ارتياد الأماكن التي يتواجد فيها البيض، من أهم مميزات النظام العنصري في أمريكا وفي الدول القائمة على الفصل العنصري، إذ تمنع دخول الأمريكيين من أصول إفريقية والملونين إليها إلى بعض المنشآت كالمقاهي والفنادق والمدارس وأماكن العبادة والأماكن العامة، كما تم حرمانهم من الكثير من الحقوق كالرعاية الاجتماعية والسكن والرعاية الطبية وحتى التوظيف والنقل، ولم تكن هذه التصرفات مجرد ردود أفعال اجتماعية فقط، بل تم تقنينها وأصبح تجاوزها معاقب عليه بعقوبة تصل حد التصفية⁷ الجسدية، وقد كانت نتيجة هذا الفصل بين المختلفين إنكار بعض الأمريكيين مبادئ أصول إفريقية خاصة الملونين لهويتهم الإفريقية، فعاشوا بسبب ذلك وضعاً اجتماعياً مزدوجاً دفع البعض إلى العبور الهوي بتخليهم عن هويتهم الأصلية والارتقاء في أحضان هوية مختلفة أشد الاختلاف، ومن هنا ظهر التشبهي العرقي للأمريكيين من أصل إفريقي الذين سعوا إلى العبور من أجل إعادة بناء الذات والسيطرة على المكان، بالبحث عن المكان الأليف⁸ وهو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكل فيه خيالنا⁹ للعيش بسلام بعيداً عن الأماكن المعادية التي يسيطر عليها البيض في نيويورك، فالمكان الأليف عندهم يعادل الكينونة والوجود ويبنى الهوية في وطن يعاد تشكيله وفق وعي بالخصوصية واستشراف لمكان ينصهر فيه ويتماهى مع عناصر ثقافية واجتماعية ليصبح للمكان هوية يعيش فيها الأنا المختلف دون طرده من طرف الآخر الأصلي.

⁷. قوانين جيم كرو (Jim Crow Laws) مصطلح شاع في ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادي، عندما صار الفصل العنصري مشروعاً في كثير من الأجزاء الجنوبية للولايات المتحدة. ويُشير المصطلح، أصلاً، إلى شخصية سوداء البشرة في أغنية شعبية تم تأليفها عام 1830 وهي أغنية ساخرة من السود الأمريكيين... وصار تعبير «جيم كرو» هو الوصف التحقيري لسود أمريكا خلال عام 1838، ومن هنا عرفت قوانين الفصل العنصري باسم قوانين جيم كرو.

⁸. استخدم غلستون باشلار مصطلح المكان الأليف والمكان المعادي في كتابه جمالية المكان: انظر غلستون باشلار، جمالية المكان، تر غالب هلسا.

. غلستون باشلار، جمالية المكان، تر غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للتوزيع والنشر/ لبنان، ط 2، 1984،

ص 9.

التمير العرقي والتطهير المكاني في رواية "زنج"

ينظر النقد الثقافي إلى المكان على أنه فضاء محمل بنسق من الدلالات التي ترتبط بالصراعات الثقافية والفكرية والهوية والسيطرة، إذ يتحول المكان إلى مجال للصراعات الاجتماعية التي تبني أو تهدم الهوية مما يعزز إدراك البنية التي يقوم عليها المجتمع الأمريكي في تلك الفترة والصراع الهوياتي الذي كان قائما بين الزنوج والبيض، عبر ظاهرة انتشرت في أمريكا في بداية القرن العشرين وهي ما يعرف بالعبور الذي ظهر في أمريكا نتيجة للممارسات اللانسانية التي تعامل بها البيض مع الزنوج المستقدمين من إفريقيا، في رحلات الاستعباد التي وقعت في حق السكان الأفارقة في بدايات القرن التاسع عشر، ويشير هذا المصطلح إلى "ادعاء فرد من عرق ما انتماء إلى عرق آخر... يتمتع المنتمون إليه بمزايا سياسية واقتصادية يسعون إلى احتكارها دون غيرهم" وهو ما أقدم عليه¹⁰ بعض الملونيين على اختيار الظهور بمظهر الآخر الأبيض، حيث تم تصنيف الأشخاص "مختلطي الأعراق" ضمن فئة "السود" وفقاً لـ "قاعدة القطرة الواحدة" ففي 1911، أقرت ولاية أركنساس قانون معروف باسم "قاعدة القطرة الواحدة". كان غرضه تجريم التعايش بين الأعراق، وتعريف "الزنجي" أي شخص "يحمل... أي دم زنجي، ما جعل أصل أفريقي مواطناً من الدرجة الثانية".¹¹ لقد كانت تيمة العبور العرقي وصناعة فضاءات بديلة محور رواية نيلا لارسن التي تدور حول تجربة صديقتين أمريكيتين من جذور إفريقية هما إيرين ريدفيلد وكليز كيندري تعيشان في مدينة نيويورك في بدايات القرن العشرين، حيث عرفت ظاهرة العبور العرقي وهو "في أبسط صوره ادعاء فرد من عرق ما انتماء إلى عرق آخر... والعبور في معناه الواسع... في السياق الأمريكي على وجه التحديد يعني وهو ما حصل مع كليز كيندري¹² عبور أفراد من أصول إفريقية على أنهم بيض"

التي تجاوزت الحدود العرقية المعترف بها من فئة "السود" إلى فئة "البيض" فقد كانت كليز فاتحة البشرة بما يكفي للتظاهر بأنها بيضاء، لقد استخدمت هذه السمة لتتزوج من رجل أبيض عنصري ثري دون أن تخبره بأصولها، وأخفت عنه هويتها طمعا في الحصول على المرتبة الاجتماعية الراقية في عالم البيض، أما إيرين ريدفيلد فقد نشأت في طبقة اجتماعية أدنى من إيرين، فقد كان والدها فقيرا ولما مات انتقلت للعيش مع عماتها الفقيرات، في شوارع هارلم في نيويورك، وكانت إيرين تدرك ذلك تماما، لذلك رفضت العرض الذي قدمته لها صديقتها بزياراتها في منزلها بسبب خوفها من زوج كليز العنصري الذي لا يقبل التعامل مع الزنوج ويأهم مخلوقات أقل قيمة من البيض،

. نيلا لارسن، زنج، ص 4.¹⁰

، <https://encyclopediaofarkansas.net.Règle de la goutte unique>، Frank W. Sweet¹¹.

. نيلا لارسن، زنج، ص 6.¹²

وبعد إلحاح كبير قررت أيرين زيارتها في بيتها وكانت أكبر ما تخشاه أن يكتشف الزوج حقيقة زوجته فيقتلها، وفي حوار مع إحدى صديقات زوجته في لقاء أقامه في منزلهمما وهي جيروودوت عندما سأله باستغراب عن سبب مناداته لزوجته كليز باسم زنج وهو تهكم صارخ من العرق الأسود، فقد لاحظ بأن لونها أصبح يميل إلى السمرة وقد طلبت منه زوجته أن يفسر للمدعوين لماذا يناديها بهذا الاسم فقالت: "هل سمعتم بما ناداني به جاك؟ ... أخبرهما يا عزيزي لماذا تسميني هكذا؟ ضحك الرجل ضحكة مكتومة... فقال عندما تزوجنا كانت بيضاء مثل زنبقة، لكن يظهر لي أنها آخذة في الدكنة تدريجيا. وأخبرتها أنها إن لم تنتبه لنفسها سوف تصحو يوما وتجد نفسها وقد تحولت إلى زنجية"¹³ وقد أجابها عن سؤالها "أي فرق سيحدث لو اكتشفت بعد كل هذه السنين أنني ملونة بنسبة واحد أو اثنين بالمائة... فقال أووه لا يا زنج لا أقبل هذا البتة... هذا هو الأمر الوحيد الذي لن أقبل به. لا زنج في عائلتي. لم يحدث ولن يحدث أبدا"¹⁴ لقد كان العرق الأسود مرفوضا في كل مستويات السلم الاجتماعي الأمريكي وعلى رأسها الطبقة المثقفة ومنها زوجها الذي نعت السود بأفضع الأوصاف، لقد رفض هذا الزوج العنصري وجود زنج في عائلته ويبرر سبب هذا الرفض بأنهم كائنات شيطانية يستحيل أن تكون جزءا من عائلته، لقد أسس تحديده للمكان انطلاقا من معايير عرقية قائمة على الاختلاف في اللون. و لا يعكس موقفه رغبته الشخصية بل هي رغبة تسيطر على كل الجنس الأبيض الذي يسعى إلى بناء فضاء خال من المختلف عرقا ولونا وهوية، فقد أصبح المكان رافدا هاما في تكوين وبناء الهوية على أساس عرقي، يحرص حق البقاء في المكان للأنا التي تسعى للسيطرة عليه و هدم الفضاء البيني المشترك.

لقد سمح مظهر إيرين ريدفيلد و كليز كندري بالمخاطرة بالعيش في المجتمع الأبيض دون أن يكتشف أمرهما أحد، ويتعامل معهما على أنهما من البيض، فقد ظهرت إيرين بصفة مؤقتة كامرأة بيضاء للوصول إلى أماكن مثل المسرح والمطاعم، في حين مرت كليز مرورا تاما إلى عالم البيض وانتقلت للعيش في نيويورك بعيدا عن شوارع هارلم التي ترعرعت فيها، هروبا من عالم السود الذي أصبح يمثل لها الكراهية والخوف والإقصاء من التمتع بالامتيازات الممنوحة للبيض، وسبب لهما هذا العبور توترا كبيرا بين الولاء للعرق وبناء الهوية الجديدة التي تمكنهما من السيطرة على المكان، مما يمنح لهما ولكل العابرين الحق في التردد دون خوف على فضاءات البيض بهوية جديدة وبالتالي السيطرة على مساحات عرقية مكتسبة حيث ترتبط الفضاءات المادية والاجتماعية بالهوية العرقية التي يدركها الفرد ويعيشها، مما يجعل هذه المواقع المكانية بالنسبة لأيرين وصديقتها عنصرا حاسما في اكتساب هوية جديدة .

. نيل لارسن، زنج، ص 55.¹³

. نيل لارسن، زنج، ص 56.¹⁴

إن محاولة إيرين وكليز بناء فضاء ثالث¹⁵ وتخلصها من التمييز والإقصاء والعنف العنصري والحصول على الفضاء الآمن الذي يتسع باستمرار إنه المكان المضاد القادر على تحقيق الانتماء والتصدي لبناء فضاء بيئي في مواجهة امتلاك المكان، مقابل إنكار الهوية ولو مؤقتاً حيث تصبح إيرين مهووسة بفكرة الولاء العرقي وتخطي حاجز اللون بطرق مختلفة من خلال التجاوز العنصري، إذ يتيح لهم امتلاك المكان الفرصة لاستنطاق العرق وفحص فعل إنكاره، كما يحيلنا إلى فضاء الصراع الذي طال تكوينهم الاجتماعي، ولما يكتشف زوج كليز كندي حقيقتها وه و ما حذرتهما منه كليز "فكري فيما سيحصل لابنك ماجري لو اكتشف السيد بيلو... لن ينسى أبداً أن بها عرقاً زنجياً"¹⁶

¹⁷، تتعرض كليز للموت بسبب دفع زوجها لها وقد شعرت بخطورة انكشاف أمرها وأخبرت في رسالتها إلى إيرين أنها ندمت على قرارها بالعبور تقول فيها: "لأنني وحيدة، وحيدة جداً... لا يسعني إلا الشوق إلى أن أكون معك مجدداً، كما لم أشتاق لأي شيء من قبل... لا يمكنك أن تعرفي كيف أرى في حياتي الشاحبة هذه الصور المشرفة لذلك الآخر الذي ظننت يوماً أنني سعيدة بالتححر منه... إنه مثل ألم، ألم لا ينقطع أبداً"¹⁸ لقد عانت كليز عزلة ووحدة وتمزقا نفسيا في فضاء هارلم، فهي لم تشعر بالألفة في نيويورك رغم كل الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية التي تحصلت عليها كأمراة بيضاء، كما أن تغير معاملة زوجها بعدما أصبح لوها داكنا يُبرز فجوة في هويتها وبدايه شعورها بالحنين للمجتمع الأفريقي ولشوارع هارلم ذات النكهة الإفريقية، وفي نهاية الرواية تسقط كليز من النافذة سقوطاً مميّتا مما يؤكد ألا مكان لها في فضاء نيويورك البيضاء، لقد أرادت العودة إلى مكان ولادتها ونشأتها هارلم نهائياً، فلم يعد المكان البديل الذي انتقلت إليه آمناً، بل زاد هويتها تشننا و الفضاء غربة، وفي حديث مع إيرين يصبح خوفها من اكتشاف زوجها حقيقة عرقها تحرراً وانعتاقاً من هذا السر الذي عاشت تخفيه وتصل في الأخير إلى قرار مضمونه: "سأفعل ما أريد فعله أكثر من أي شيء آخر الآن. سألجأ إليها لأعيش. هارلم، أعني... إذا اكتشف جاك الأمر، وإذا انكسر زواجنا، فهذا سيطلق سراحني. أليس كذلك؟"¹⁹.

يؤكد موت كليز على أنه لا مكان لها في المجتمع الأسود ولا في المجتمع الأبيض، لقد حاولت تشكيل فضاء ثالث صالحاً للعيش مع البديل ولكنها فشلت في تأسيس فضاء بينية تجمع فيه بين الهوية الأفريقية الأصلية

. طور هومي بإبها مفهوم الفضاء الثالث ويقصد به فضاء اللقاء بين فضائين مختلفين إلى مفهوم الحدود الذي يقصد به الفضاءات التي تتعالق فيه الهويات وتتجاذب: انظر هومي بابا موقع الثقافة، تر نائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، المغرب، ص 135.15

. نيلا لارسن، نفسه، ص 98.16

. نيلا لارسن، نفسه، ص 93.17

. نيلا لارسن، نفسه، ص 98.18

. نيلا لارسن، نفسه، ص 156.19

والهوية الأمريكية المكتسبة، وبالتالي تشييد فضاء للهجنة لأنه تحول مزيف مبني على أساس الكذب والخداع والتظاهر بغير الحقيقة، فالمكان يساوي الكينونة وهو ليس مجرد فضاء هندسي فحسب.

خاتمة

لقد ظهر في مرحلة الحداثة وما بعدها منعطف هام في المفاهيم والمنظورات التي أدت إلى إعادة تصور الفضاء المكاني، حيث ظهرت علاقات تأثرية بين أفراد المجتمع والفضاء الذي يعيشون فيه وإعادة تشكيل الرؤى للمكان ليس من الناحية الجغرافية الثابتة، ولكن من منظور أوسع وأكثر تشابكاً تسقط فيها الحدود الفاصلة، فتظهر كيانات وكيانات أخرى مضادة بعيدا عن التداخل والهجنة وهو ما يسميه إدوارد سعيد بالأحياء المتضادة، حيث تسعى كل فئة إلى تسييج المكان بمعناه الاجتماعي والسياسي وطرده الآخر المختلف، وهو ما حاولت الصديقتان كلير وأيرين تفاديه عبر ممارسة العبور كما جاء في رواية نيل لارسن عندما انتقلتا من هارلم كمكان كان التمييز العنصري والاختلاف العرقي معياراً لتصنيف البشر تصنيفاً تراتبياً يجعل بعض البشر أقل درجة من البعض الآخر لا لشيء إلا لفروقات بيولوجية تعطي الحق لهؤلاء في ممارسة كل ألوان التطهير العرقي وبالتالي تطهير المكان الذي لم يعد يسع الجميع للحياة المشتركة من المختلف، إن أكذوبة الفضاء الطاهر والعرق النقي التي آمنت بها الشريحة في وقت مضى لم تعد صالحة لزماننا هذا، لأن حياة البشر قائمة على التفاعل الإيجابي في فضاءات بينية مشتركة وليس الأقصاء والطرده من المكان حيث يصبح فضاء تتشاركه الأعراق والهويات .

المراجع

1. عبد الله محمد الغدامي، المركز الثقافي العربي، المرجع نفسه، ط1، 2008، ص79
بسام علي ، جماليات المكان في رواية باب الساحة، لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مج، 15 ع 2، 2007 ص273
2. غاستون باشلار، جمالية المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للتوزيع والنشر/ لبنان، ط 2، 1984.
3. نيل لارسن، زنج، تر: علي المجنوبي، دار أثر، دت، دط.
4. هومي بابا موقع الثقافة، تر ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، المغرب.
- Frank, Règle de la goutte unique. <https://encyclopediaofarkansas.net4>
- W. Sweet
5. https://www.google.com/search?q=history+of+black+harlem&sca_esv

Frank ,Règle de la goutte unique, <https://encyclopediaofarkansas.net>.
.W. Sweet